«الهجرة الأخيرة» رواية جاد الحاج بالإنكليزية

أجنبيات كثيرات ومهاجر وحيد لكن الرواية لبنانية بامتياز

في الصفحة الأخيرة من رواية «الهجرة الأخيرة» لجاد الحاج والصادرة باللغة الانكليزية، تقول أم أشرف موجهة كلامها الى ابنها أشرف سعد «هذه هي حدوتي الاولى والأخيرة». وتحمل حملتها هذه أكثر من معنى الهجرة الحقرافية التي قامت بها المرأة للمرة الاولى في حياتها من فانا البلدة الجنوبية في لبنان وسقط رأس الراوي أشرف سعد الى لندن. فهجرتها هذه هي أيضا بداية لحياة جديدة أو لنقل حلقة جديدة من حلقات التنقل والترحال والحب والموت والإغتراب.

نعد رواية جاد الحاج الاولى على انها رواية الهجرة والإغتراب. هجرة تأخذ معاني مختلفة ومسارات عديدة نحو أمكنة أخرى ونساء اخريات. وعنوان رواية جاد الحاج مغر من حيث دعوتنا الى الدخول في عالم المقارنة أو التشبيه بين رواية ورواية أخرى تاريخية للكاتب فانستك كرونن صدرت عام ١٩٥٧ وتحمل العنوان نفسه. «الهجرة الاخيرة». تدور أحداث تلك الرواية التاريخية في ايران وتتنقل شخصياتها ـ الرعاة مع مواشيهم ـ من مكان الى آخر مع اختلاف المواسم بحثا عن المأكل والملاذ من العنف والحروب والجفاف وطلبا لحياة حرة مستطيع الناس فيها الحفاظ على هويتهم وإنشادها من مشاريع الشاه بهلوي «التحديثية» في بدايات القرن العشرين.

ربما يجوز لنا ان نقول ان الناس في الروايتين يتنقلون طلبا لحياة أخرى. وتتغير مسارات حيواتهم بفعل هجرة قسرية كانت أم اختيارية. تدور أحداث «الهجرات القصرية» في رواية جاد الحاج لبعد خلا بين لندن وامستردام وسيدني وفانا. وإن جاز تشبيه شخصيات رواية الحاج «بالرحل العصريين» ، إلا انهم ينفشون هم أيضا مثل شخصيات رواية فانستك كرونن عن ملجأ آخر لاحزانهم وهمومهم.

سيرة روائية

«الهجرة الإخيرة» لجاد الحاج رواية تشبه السيرة الذاتية. قصة صحافي لبناني من فانا الجنوبية يهاجر مع زوجته سابينا وابنته ليلى الى استراليا. وهناك ينهار الزواج ويفترق الزوجان بعد ولادة ريم الابنة الثانية. وسحري سرد الاحداث على لسان الراوي الوحيد أشرف سعد الابن والزوج والأب والحبيب لنساء موزعات على فصول الرواية. وهو ليس الراوي الوحيد فحسب بل يكاد يكون الرجل الوحيد في الرواية عدا ظهور عابر لصديق الراوي مروان أو للكاتب محمد شكري والذي أطلق عليه الحاج اسم نصري محمود. أو للممثل فهمي اللبناني الذي هاجر مع عائلته الى استراليا وتحول عن مهنة التمثيل الى العمل كمزارع للبندورة بمساعدة زوجته أسمى. تظهر الشخصيات النسائية وتتعرف عليها عبر ما يقول الراوي عنها فيما عدا ابنتي الراوي اللتين تعيشان في استراليا. كذلك حبيبة الراوي كليو المرأة الكاتبة التي ماتت بشكل درامي خلال رحلة قامت بها الى المكسيك والتي رغم موتها الذي يفتتح به الحاج روايته يقيت حاضرة عبر كتاباتها التي زينت فصول الرواية.

أشرف سعد الرجل الراوي الوحيد. صحافي يعمل في جريدة عربية في لندن وتفرض عليه مهنته الإنتقال الدائم من مكان الى آخر لتغطية نشاطات ثقافية ومؤتمرات. يحكي الراوي عن هجرته وعن هجرة الآخرين من اللبنانيين وعن تأثير الهجرة على مسارات الناس وتحولات مصائرهم واهتماماتهم. هاجر أشرف سعد مع زوجته سابينا «وكانت الحياة جميلة قبل ان يزور الزوجة أحد أعضاء شهود يهوه» يقول الراوي الزوج. تجربة البحث عن الذات في أرض جديدة وبعيدة عن الوطن، والتي كانت سببا في انهيار الزواج قد تكون أحيانا نتيجة الهجرة واقتلاع الجذور. إلا ان الهوية الضائعة قد لا تحتاج الى تغيير مكان وقد يعثر عنها في المكان ذاته عبر وسائل وتعبيرات مختلفة. سابينا التي وصفها الزوج الراوي بأنها قد تكون كل شيء ما عدا زوجة وأما عاشت مأساة الاقتلاع، ومأساة الهوية ولم يقفر لها الرجل الذي عاش المأساة نفسها بتعابير مختلفة قد تكون عبر السفر والتنقل أو عبر التقنيش عن «البيت» (Home) الضائع أو عن حب مستحيل يتمثل بامرأة تحبه وتقبله دون حساب كما تحب الأم ابنها.

إيمان حميدان يونس

الحب أو الملاذ

وان قدمت رواية الحاج على انها رواية الهجرة والإغتراب. إلا انها رواية البحث عن الحب الضائع باستياز. كليو المرأة الكاتبة التي أحبها الراوي منذ لقائهما الأول في استردام تسافر الى المكسيك وراء شغف التجربة وكتابة التجربة والحياة العاصرة. الا انها تموت أثر فيضان وتترك للراوي حزنا كبيرا ودفترا صغيرا كتبت فيه رسائل حب قصيرة وخواطر توجت فصول الرواية وأضفت طواعة بالغة على السرد الروائي. وكليو في المرأة الكاملة التي لا بد ان تموت. في السعادة أو ما يقترب منها، والسعادة ـ كما يقول الراوي ـ غير موجودة، أو هي مثل الله لا يصح منافسة وجودها أو عدمه. يهاجر الراوي ـ أو جاد الحاج ـ من حب الى آخر ويعيش مأسي الطلاق والموت والإنفصال. يحاول بعد رحيل كليو البحث عن حب آخر شبيه محبه الأول أو يحب كليو نفسها، إلا ان علاقته مع جيني ـ اخصائية العلاج بالهجر الراوي من حب الى آخر لينهي ترحاله مع أنا المرأة التي عرفها أولا في لندن ولم تتسم علاقته بها بأي شغف. انها من نوع النساء الحاضرات دائما والتي لا يبتئيه لها الرجل الا في لحظات الوحدة والخسارة. انا بدت كصديقه اكثر منها حبيبة، مستقعة ومساعدة وحاضرة دائما في أوقات الحزن والخسارة. في التي تظفر في النهاية بطفل من أشرف سعد ينتظر ولادته وبداية حياة جديدة معه. اجتماع أنا وام أشرف في الصفحات الأخيرة من الرواية بدا وكان المرأتين وجهان لإمرأة واحدة.

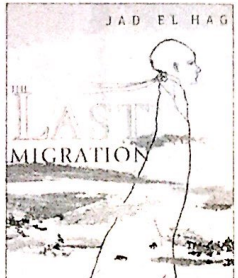

المرأة التي تحب وتعطي دون سؤال. المرأة الحبيبة والأم.

للمرأة كما نرى حضور طاغ في رواية الحاج. ذلك انها الأم والحبيبة والزوجة والابنة.

تأخذ الحبيبة المساحة الأكبر في الرواية، وهي المتمثلة أساسا بكليو المرأة الكاتبة، العاشقة، المبادرة المغامرة التي نهوى السفر والتنقل وعيش التجربة قبل كتابتها. إنها المرأة التي تكتب حياتها وموتها. والنساء في حياة الراوي أجنبيات لهن طبائع مختلفة عليه أن يتعلم فهمها والتأقلم معها. وتختلف علاقة الراوي بهذا المعنى مع نساء الهجرة الأخيرة عن تلك المبنية مع نساء «موسم الهجرة الى الشمال» للطيب صالح.

ففي هذه العلاقة (الهجرة الأخيرة) لم نلحظ التناقض الحاد بين الشرق والغرب. أو بين رجل قد يسمى شرقيا وامرأة غربية. الرجل الراوي عند جاد الحاج يعبر عن حبه للمرأة عبر الدخول الى عالمها: ببيتها وحديقتها ومطبخها وأغراضها الحميمة وأدراجها وخزانتها.

يدخل أشرف سعد الى مطبخ المرأة التي يحب، يصنع لها المأكولات اللبنانية، يصبح بذلك تحضير الطعام في غواية وإغراء. تتنقل الأدوار بين الرجل والمرأة وترى كليو تكتب رسائل الحب وتسافر، بينما يستمتع أشرف سعد بخلط التبولة أو الفتوش بأصابعه، لتتحول التبولة والمتبل والكبة الى «دعوات مفتوحة الى الحب بين شخصين ينتميان الى عالمين مختلفين».

قد يكون كل ذلك exotism من نوع آخر؛ نوع جديد يتقرب فيه الرجل من المرأة عبر القيام بأدوار بعيدة عن صورة الرجل التقليدي، كما قدمها لنا الطيب صالح في «موسم الهجرة الى الشمال».

ولم يقصر الإختلاف في النظرة الى المرأة والحب فحسب بل الى الموت أيضا. عبر موت كليو قدم الروائي جاد الحاج علاقة لاذعة مع الموت الذي يبدو أحيانا ضحكا وفي لحظات نادرة مثل تركه بأقة الزهور قرب ضريح رجل مجهول طالبا منه التفتيش عن ضريح كليو وتقديم الباقة لها. الموت يقهر الراوي إلا أن الحب الذي يستحضره عبر كتابات كليو يقهر الزمن ويقهر الموت أيضا. يتوقف الزمن حين سعيش الحب ويتمثل برغبات شهية مفتوحة على العالم. حتى ممارسة الحب يصورها الحاج بلغة شاعرية. كفعل جميل وبعيد عن لغة العنف والاقتحام التي اعتدنا على قراءتها في كتابات الأدباء من الرجال العرب.

لبنانية بالإنكليزية

في «الهجرة الأخيرة» مجموعة تفاصيل صغيرة وبومبات وحوارات قد تبدو للوهلة الأولى فائضة، إلا أنها تشكل خلفية أساسية لما يريد الكاتب قوله. تلعب الأماكن الدور نفسه في تقديم الرواية ـ السيرة والتي عمد الكاتب الى تغيير أسمائها وأسماء شخصياتها. لكنها بقيت رغم ذلك فيها الكثير من سيرة الكاتب وحياته.

استعمل جاد الحاج بعضا من تفاصيل حياته ليقول ما عنده من آراء حول الحياة والحب والموت والمرض. كذلك لم تخل الرواية من نقد مباشر للسياسة والثقافة العربية. تحولت تجربة الروائي الصحفية الى وسيلة يظهر عبرها خيبة أمله في كل ما يكتب ويقال في الصحافة والأدب. حتى أنه يظهر عدم تقته بما يكتب هو بالذات كصحفي. الأماكن هي أيضا كانت مدخلا للكتابة عن الحرب في لبنان. واختيار فانا كمسقط رأس الراوي جاء موفقا حيث سهل على الكاتب الدخول الى عالم الحرب في لبنان والكتابة عن الإجتياح الإسرائيلي عام ١٩٩٦ وعن أحوال الناس ومعاناتهم في الجنوب اللبناني.

رواية جاد الحاج هي رواية لبنانية بامتياز حيث الكبة والتبولة والمتبل وفيروز موجودة دائما. رواية لبنانية كتبت باللغة الإنكليزية. كذلك ملفت أيضا إدخال بعض الصور الطائعة من مخيلة كاتب عايش حربا أهلية في الوطن كان يصف الناس في المطارات كهؤلاء الهاربين من حرب أو الخارجين من ملجأ. أو يصفهم بأفراد قبيلة بمشي أمامهم شيخهم ويتودهم من مكان الى آخر. صور طالعة من الشرق كتبها الحاج بلغة الغرب لتولد نوعا لغويا جديدا هو مزيج ثقافي بين الغرب والشرق. ما قام به الحاج قد لا يكون محاولة لحوار مع الغرب، بل تقديم صورة مختلفة ومغايرة عن العالمين معا.

لكن يبقى في النهاية سؤال لن تحاول الإجابة عليه: كيف يمكن أن تكون رواية الحاج لو كتبت باللغة العربية؟

(*) «الهجرة الأخيرة» عن Panache Publications ـ استراليا ٢٠٠٢.